

كتاب : ذم قسوة القلب .
للحافظ ابن رجب الحنبلي
رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام العلامة الحافظ زين الدين ابن الشيخ أبو العباس أحمد بن رجب -
فسح الله في مدته ونفع به - :
الحمد لله

رسالة في ذم قسوة القلب ، وذكر أسبابها ، وما تزول به .

أما ذم القسوة :

قال تعالى : { ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً } ، ثم
بيّن وجه كونها أشد قسوة بقوله تعالى : { وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ
وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ } البقرة :
74 .

وقال تعالى : { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ
الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ }
الحديد : 16 ، وقال تعالى : { قَوْلٍ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ } الزمر : 22 ، فوصف أهل الكتاب بالقسوة ، ونهانا عن التشبه بهم .

قال بعض السلف : لا يكون أشد قسوة من صاحب الكتاب إذا قسا .

وفي الترمذي من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
((لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن
أبعد الناس من الله القلب القاسي)) .

وفي مسند البرّار عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أربعة
من الشقاء : جمود العين ، وقساوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا)) ،

وذكره ابن الجوزي في الموضوعات من طريق أبي داود النخعي الكذاب ، عن إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة ، عن أنس .

وقال مالك بن دينار : ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب . ذكره عبدالله بن أحمد في الزهد .

وقال حذيفة المرعشي : ما أُصيب أحدٌ بمصيبة أعظم من قساوة قلبه . رواه أبو نعيم .

وأما أسباب القسوة .. فكثيرة:

منها : كثرة الكلام بغير ذكر الله ، كما في حديث ابن عمر السابق .

ومنها : نقضُ العهد مع الله تعالى ، قال تعالى : { فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً } المائدة : 13 .

قال ابن عقيل يوماً في وعظه : يا من يجد من قلبه قسوة ! احذر أن تكون نقضت عهداً ! فإن الله يقول : { فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ .. } الآية .

ومنها : كثرة الضحك ، ففي الترمذي عن الحسن ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((لا تُكثروا الضحك ، فإن كثرة الضحك تُميت القلب)) ، وقال : روي عن الحسن قوله .

وخرَّج ابن ماجة من طريق أبي رجاء الجَزَري ، عن برد بن سنان ، عن مكحول ، عن واثلة بن الأسقع ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((كثرة الضحك تُميت القلب)) ، ومن طريق إبراهيم بن عبدالله بن حنين ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ومنها : كثرة الأكل ، ولا سيما إن كان من الشبهات أو الحرام.

قال بشر بن الحارث : خَصَلَتَانِ تُقْسِيَانِ القلب : كثرة الكلام ، وكثرة الأكل . ذكره أبو نعيم.

وذكر المروزي في كتاب الورع قال : قلت لأبي عبدالله - يعني أحمد بن حنبل - : يجدُّ الرجل من قلبه رقَّة وهو شبع ؟ قال : ما أرى .

ومنها : كثرة الذنوب ، قال تعالى : { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } المطففين : 14 .

وفي المُسند ، والترمذي عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نَكْتَةً سُودَاءَ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يَغْلُو قَلْبُهُ ، فَذَلِكَ الرَّانَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ : { كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ })) . قال الترمذي : صحيح .

قال بعض السلف : البدن إذا عري رقَّ ، وكذلك القلب إذا قلَّت خطاياها أسرع دمعته .

وفي هذا المعنى يقول ابن المبارك - رحمه الله - :

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ *** وَيُورِثُكَ الذُّلَّ إِيمَانُهَا
وَتَرِكَ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ *** وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عَصِيَانُهَا

وَأَمَّا مَزِيلَاتُ الْقِسْوَةِ فَمُتَعَدَّةٌ أَيْضاً :

فمنها : كثرة ذكر الله الذي يتواطأ عليه القلب واللسان ، قال المعلى بن زياد :
إِنَّ رَجُلًا قَالَ لِلْحَسَنِ : يَا أَبَا سَعِيدَ ، أَشْكُو إِلَيْكَ قِسْوَةَ قَلْبِي ؟ قَالَ : أَدْنَهُ مِنَ الذِّكْرِ .
وقال وهب بن الورد : نظرنا في هذا الحديث ، فلم نجد شيئاً أرق لهذه القلوب ، ولا أشد استجلاباً للحق ؛ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ .

وقال يحيى بن مُعَاذٍ ، وإبراهيم الخَوَّاص : دَوَاءُ الْقَلْبِ خَمْسَةُ أَشْيَاءَ : قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّفَكُّرِ ، وَخَلَاءُ الْبَطْنِ ، وَقِيَامُ اللَّيْلِ ، وَالتَّضَرُّعُ عِنْدَ السَّحَرِ ، وَمَجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ .

والأصل في إزالة قسوة القلب بالذكر ؛ قوله تعالى : { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ } الرعد : 28 ، وقوله تعالى : { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ { الزمر : 23 ، وقال تعالى : { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ { الحديد : 16 .

وفي حديث عبدالعزيز بن أبي رواد مُرسلاً ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ)) قيل : فما جلاؤها يا رسول الله ؟ قال : ((تلاوة كتاب الله ، وكثرة ذكره)) .

ومنها : الإحسان إلى اليتامى والمساكين ، روى ابن أبي الدنيا : حدثنا علي بن الجعد ، حدثني حماد بن سلمة ، عن أبي عمران الجوني ، عن أبي هريرة : أَنَّ رجلاً شكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه ؟ فقال : ((إِنَّ أَحَبَّ أَنْ يُلِينَ قَلْبُكَ ؛ فامسح رأس اليتيم ، وأطعم المساكين)) إسناده جيد، وكذا رواه ابن مهدي عن حماد بن سلمة ، ورواه جعفر بن مسافر : حدثنا مُؤَمَّل ، حدثنا حماد ، عن أبي عمران ، عن عبدالله بن الصامت ، عن أبي ذر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم . وهذا كأنه غيرُ محفوظ عن حماد، ورواه الجوزجاني : حدثنا محمد بن عبدالله الرقاشي ، حدثنا جعفر ، حدثنا أبو عمران الجوني مُرسلاً ، وهو أشبه ، وجعفر أحفظ لحديث أبي عمران من حماد بن سلمة .

وروى أبو نُعيم ، من طريق عبدالرزاق ، عن معمر ، عن صاحب له : أَنَّ أبا الدرداء كتب إلى سلمان : ارحم اليتيم وأدنه منك ، وأطعمه من طعامك . فَأَنِّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه رجلٌ يشكي قسوة قلبه ؟ فقال : ((أَتَحِبُّ أَنْ يُلِينَ قَلْبُكَ ؟)) فقال له : نعم . فقال : ((ادن اليتيم منك وامسح رأسه ، وأطعمه من طعامك ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُلِينَ قَلْبُكَ ، وتقدر على حاجتك)) .

قال أبو نُعيم : ورواه ابن جابر ، والمُطعم بن المقدام ، عن محمد بن واسع : أن أبا الدرداء كتب إلى سلمان مثله .

ونقل أبو طالب : أَنَّ رجلاً سأل أبا عبدالله – يعني أحمد بن حنبل – فقال له : كيف يرقُّ قلبي ؟ قال : ادخل المقبرة ، وامسح رأس اليتيم .

ومنها: كثرة ذكر الموت ، ذكر ابن أبي الدنيا بإسناده ، عن منصور بن عبد الرحمن ، عن صفية : أنَّ امرأة أتت عائشة تشكو إليها القسوة ؟ فقالت : أكثرى ذكر الموت؛ يرق قلبك ، وتقدرين على حاجتك . قالت : ففعلت ، فأُيسِت من قلبها رشداً فجاءت تشكر لعائشة رضي الله عنها .

وكان غير واحد من السلف منهم: سعيد بن جبير وربيعة بن أبي راشد ، يقولون: لو فارق ذكر الموت قلوبنا ساعة لفسدت قلوبنا .

وفي السنن : عن النبي صلى الله عليه وسلم : ((أكثرُوا ذكر هَازِمِ اللَّذَاتِ)) – الموت – .

ورُوي مُرسلاً عن عطاء الخراساني قال : مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاه الضحك ! فقال : ((شُوبُوا مجلسكم بذكر مَكْدِرِ اللَّذَاتِ)) قالوا : وما يُكدر اللَّذَات يا رسول الله ؟ قال : ((الموت)) .

ومنها: زيارة القبور والتفكير في حال أهلها ومصيرهم ! وقد سبق قول أحمد للذي سأله ما يُرِقُّ قلبي ؟ قال : ادخل المقبرة ! .

وقد ثبت في صحيح مسلم : عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((زُورُوا القبور فإنها تُذكِّر الموت)) .

وعن بُريدة ، أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنَّها تذكر الآخرة)) رواه أحمد ، والترمذي وصححه .

وعن أنس ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ، ثم بدا لي أَنَّهُ تُرِقُّ القلب ، وتُدَمِع العين ، وتُذكر الآخرة ، فزوروها ولا تقولوا هُجْراً)) رواه الإمام أحمد ، وابن أبي الدنيا .

وذكر ابنُ أبي الدنيا : عن محمد بن صالح التمار قال : كان صفوان بن سليم يأتي البقيع في الأيام فيمر بي ، فاتبعته ذات يوم؛ وقلت : والله لا انظرَنَّ ما يصنع ! قال : ففتَّع رأسه وجلس إلى قبر منها ، فلم يزل يبكي حتى رحمته . قال : ظننتُ أَنه قبر بعض أهله ! قال : فمرَّ بي مرة أخرى ، فاتبعته فقعد إلى جنب قبرٍ غيره ، ففعل مثل ذلك . فذكرتُ ذلك لمحمد بن المنكدر وقلت : إنَّما ظننتُ أَنه قبر بعض أهل .

فقال محمد : كلهم أهل وإخوانه ! إنَّما هو رجل يُحَرِّك قلبه بذكر الأموات كلَّما عرضت لهو قسوة . قال : ثم جعل محمد بن المنكدر بعد يَمُرُّ بي فيأتي البقيع ، فسَلَّمْتُ عليه ذات يوم ، فقال : ما نفعتك موعظة صفوان ؟ قال : فظننت أنه انتفع بما أَلقيْتُ إليه منها .

وذكر أيضاً : أنَّ عجوزاً متعبدة من عبدالقيس كانت تُكثر إتيان القبور ، فعُوتبت في ذلك . فقالت : إنَّ القلب القاسي إذا جفا لم يَلْتِنه إلا رسول البلى ، وأنِّي لآتي القبور وكأني انظر إليه وقد خرجوا من بين أطباقها ، وكأني انظر إلى تلك الوجوه المتعفِّره ، وإلى تلك الأجسام المتغيِّرة ، وإلى تلك الأكفان الدنسة !!، فيا له من منظر لم أَسِرَّ به .. قلوبهم ، ما أنكل مرارة الأنفس ، وأشد تلفة الأبدان.

وقال زياد النميري : ما اشتقت إلى البكاء إلا مررت عليه . قال له رجل : وكيف ذلك ؟ قال : إذا أردتُ ذلك خرجت إلى المقابر فجلست إلى بعض تلك القبور ، ثم فكَّرتُ فيما صاروا إليه من البلى ، وذكرت ما نحن فيه من المُهلة . قال : فعند ذلك تختفي أطواري ! .

وقلتُ والله الموفِّق :

أفي دار الخراب تظل تبني *** وتعمر ما لعمران خلقتا
وما تركت لك الأيام عذراً *** لقد وعظتك لكن ما تعظتا
تُنادي للرحيل بكل حين *** وتُعلن إنَّما المقصودُ أنتا
وتُسمعك النداء وأنت لاهٍ *** عن الداعي كأنك ما سمعتا
وتعلم أنَّه سفرٌ بعيد *** وعن إعداد زادٍ قد غفلتا
تنام وطالب الأيام ساعٍ *** وراءك لا ينام فكيف نمتا
معائب هذه الدنيا كثير *** وأنت على محبَّتها طُبعتا
يضيع العمرُ في لعبٍ ولهو *** ولو أُعطيت عقلاً ما لعبتا
فما بعد الممات سوى جحيم *** لعاص أو نعيم إنْ أطعنا
ولست بآملٍ باطلٍ رداً لدنيا *** فتعملُ صالحاً فيما تركتا
وأوَّل من ألوم اليوم نفسي *** فقد فعلتُ نظائرَ ما فعلتا

أيا نفسي أخوضاً في المعاصي *** وبعد الأربعين وفيت ستا
وأرجو أن يطول العمرُ حتى *** أرى زاد الرحيل وقد تأتى
أيا غُصن الشباب تميل زهواً *** كأنك قد مضى زمن وشبتا
علمت فدع سبيلَ الجهل واحذر *** وصحح قد علمت وما عملتا
ويا من يجمع الأموال قل لي *** أيمنعك الردى ما قد جمعتا
ويا من يبتغي أمراً مطاعاً *** ليسمع نافذاً من قد أمرتا
عجبت إلى الولاية لا تُبالي *** أجرت على البرية أم عدلتا
ألا تدري بأنك يوم صارت *** إليك بغير سكين دُبحتا
وليس يقوم فرحةً "قد تولى" *** بترحة يوم تسمع "قد عُزلتا"
ولا تُهمل فإن الوقت يسري *** فإن لم تغتَمنه فقد أضعتا
ترى الأيام تُبلي كل غُصن *** وتطوي من سرورك ما نشرتا
وتعلم إنما الدنيا منام *** فأحلى ما تكون إذا انتبهتا
فكيف تصدّ عن تحصيل باق *** وبالفاني وزخرفه شُغلتا
هي الدنيا إذا سرتك يوماً *** تسووك ضعف ما فيها سُررت
تغرّك كالسراب فانت تسري *** إليه وليس تشعر إن عُررتا
وأشهد كم أبادت من حبيب *** كأنك آمن مما شهدتا
وتدفنهم وترجع ذا سُرور *** بما قد نلت من إرث وحرثا
وتنساهم وأنت غداً ستفنى *** كأنك ما خلقت ولا وجدتا
تُحدّث عنهم وتقول: كانوا *** نعم كانوا كما والله كننا
حديثك هم وأنت غداً حديثٌ *** لغيرهم فأحسن ما استطعتا
يعود المرء بعد الموت ذكراً *** فكن حسن الحديث إذا ذُكرتا
سل الأيام عن عم وخال *** وما لك والسؤال وقد علمتا
ألست ترى ديارهم خلاءً *** فقد أنكرت منها ما عرفتا
ومنها: النظرُ في ديار الهالكين ، والاعتبار بمنازل الغابرين .

روى ابن أبي الدنيا في كتاب التفكير والاعتبار بإسناده : عن عمر بن سليم الباهلي ، عن أبي الوليد أنه قال : كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه؛ يأتي الخربة فيقف على بابها ، فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : كلُّ شيء هالكٌ إلا وجهه !! .

وروى في كتاب القبور بإسناده : عن محمد بن قدامة قال : كان الربيع بن خثيم إذا وجد من قلبه قسوة يأتي منزل صديق له قد مات؛ في الليل فينادي : يا فلان بن فلان ، يا فلان بن فلان . ثم يقول : ليت شعري !! ما فعلت وما فعل بك ؟ ثم يبكي حتى تسيل دموعه ، فيعرف ذلك فيه إلى مثلها .

ومنها : أكل الحلال ، روى أبو نعيم وغيره ، من طريق عمر بن صالح الطرسوسي قال : ذهبتُ أنا ويحيى الجلاء – وكان يُقال إنّه من الأبدال – إلى أبي عبدالله أحمد بن حنبل فسألته – وكان إلى جنبه بوران وزهير وهارون الجمال – فقلت : رحمك الله يا أبا عبدالله بما تلين القلوب ؟ فنظر إلى أصحابه فغمزهم بعينه ، ثم أطرق ثم رفع رأسه فقال : يا بني بأكل الحلال . فمررتُ كما أنا إلى أبي نصر بشر بن الحارث فقلت له : يا أبا نصر بما تلين القلوب ؟ فقال : ألا بذكر الله تطمئن القلوب . فقلتُ : فإني جئتُ من عند أبي عبدالله . قال : هيه ! أي شيء قال لك أبو عبدالله ؟ قلت : قال : بأكل الحلال . فقال جاء بالأصل ، جاء بالأصل ! فمررتُ إلى عبدالوهاب الوراق فقلتُ : يا أبا الحسن بما تلين القلوب ؟ فقال : ألا بذكر الله تطمئن القلوب . قلت : فإن جئتُ من أبي عبدالله . فاحمرّت وجنتاه من الفرح ! فقال لي : أي شيء قال أبو عبدالله . قلت : قال : بأكل الحلال . فقال : جاءك بالجوهر ، جاءك بالجوهر ، الأصل كما قال ، الأصل كما قال !! .

والحمد لله وحده .